

< أم شوايل >

تفاصيل قصة الأعرابي الجهني الذي وأد ابنته في
القرن الحادي والعشرين بالسودان
وحكايات شائقة أخرى

د. حمدون كباشي حمدان

تقديم

إلى كل من يكنُ القيم الباذخة بين الجوانح لتكون
سُرجاً يُستدلُّ بها في دروب الحياة المتشعبة أهدي هذه
الكلمات المعبرة التي نسجتها من أحداث اجتماعية لصيقة
بحياتنا، وأضفت إليها مواقف ناصعة أعجبنى مضمونها
فترجمتها .

حمدون، ، ،

أم شواييل

"أم شوايل"

هَبَتْ تلك الصبية من نومها نشطة قبيل بزوغ الشمس، ولا غرو في ذلك فعادة البداية الاسترخاء عقب صلاة العشاء حيث يخيم الظلام الحالك على تلك البقاع التي تتقصها المرافق الحضارية، وسرعان ما يسري الكرى على أجسامهم المنهكة طوال النهار من كد الفلاحة ولغوب الرعي فيغطون في سبات عميق .

اتجهت الصبية "أم شوائل" صوب الموقد، قدحت الثقاب وأشعلت النار، تهيأت للصلاة وبعد أن فرغت منها رفعت كفيها دعاءً وتضرعاً لله، اجتمعت أغانيها حولها كأنها تزجي لها التحية ولكنها في واقع الأمر كانت تستجير بسحائب الدخان المتصاعدة التي تخترق أوبارها لتفر منها الهوام التي تعلق بها.

قبل أن تطلق البهم من الأرباق انداحت في ذاكرتها صورة أمها الرؤوم التي رحلت عاماً أول. أغرورقت عينها بالدموع وهي تستحضر تلك الأحداث الخوالي ويتردد صدى ندائها لها: أم شوايل يا حبيبتي أم شوايل، نعم أطلقت عليها هذا الاسم الجميل تيمناً بأن تتال الأسرة حظاً من الخير وكثرة النعم. فالشائلة هي الناقة التي تكن في رحمها علقه الجنين، وأم شوائل - أي صاحبة الإبل الشائلة: اسم له وقع في جيلة أبيها "أحمد مختار" الذي كان معروفاً لدى قومه بأنه ذاهل الرشده لهُفاً للمال.

لم تع أم شوائل نفسها من خضم تلك اللحظات الحاملة إلا بعد أن تنهى إلى سمعها زجر والدها : " هس .. هس ... لغنيماتٍ نددتُ بعيداً عن عرصة المراح لتتضم خسيساً من يبيس الكلاً المتناثر. دلفت أم شوايل صوب غنيماتها التي حول النار لتستدرها وتحلب من صريفها الذي يُمزج مع الشاي فترتشفه محترماً مع أبيها لتسري الحيوية والنشاط في جسديهما المرهقين استعداداً لاستقبال يوم طويل من الرعي الشاق .

ثم استدارت وتناولت كأساً معدنياً خلطت فيها طحين ذرة الدخن مع الماء. حفرت أخدوداً وسط الجمر وسكبت فيه العجين وهالت عليه الرمال والجمر. وما هي إلا دقائق معدودة حتى فاحت رائحة خبز "أم دفانه" النضيج كما يسميه بدو بلاد كردفان.

فنكثت الرمال لتخرجه وشرعت تحثو ما علق به من دقاق الجمر لتعيد الكرة حتى تهيب خبزات وجبتها التي تؤدمها برائحة أو حليب آناء النهار. ارتفعت الشمس قليلاً فوق الأفق، دبت الحياة في ربوع تلك القرية الوادعة. نباح الكلاب، صياح الدجاج، هتاف الرعاة، وأصوات النعم قاصدة المرعى وما تثير بأرجلها من رهج تتخلله أشعة الشمس كل ذلك يشكل لوحة رومانسية رائعة.

هبت أم شوايل آنذاك تهش بعصاها على القطيع تسوقه نحو المرعى. ها هو والدها كالعادة يردد لها المحاذير من التفريط.

تبعث الوليدة القطيع وقد بدت على محياها مشاعر الغبطة وهي تحمل "ظبية" الطعام بيسراها وتمسك بعناء العصا الرقيقة بيمينها الشلاء. فقد أصيبت بداء في صغرها سبب لها عطباً وضعفاً في تلك الجهة.

تتاهى إلى سمعها حداء إبراهيم معتلياً بغيره الذي يخب صوب الآبار، وصوت راعٍ آخر يعزف لحناً شجياً على شبابته وهناك شبة حسناء تحمل أسقيتها على حمار وتصف رجليها على جانب واحد من السرج، وهي تتلهى - كعادة البداية - بأرجوزة غنائية تسليها وتختصر لها الطريق إلى منهل الماء، صارت تردد مقطعاً من غناء الحماسة:

نمراً ديمة حاجز الغابة خلّى قلوب الناس تهابا

علها تعني بذلك النمر أحد أفراد أسرتها أو شخصاً آخر له موقع في نفسها.

بعد مسيرة ميلين تشعبت السُّبل وسلكت أم شوايل طريق السهل الفسيح الذي يفضي إلى المرعى. وما إن وصلتُ هناك حتى تفرقت نعاجها في رحابة كبيادق الشطرنج، وجلست هي تتقياً دوحة سدر فينانة ترقبُ أغنامها. وعندما حانت القيلولة أسندت أم شوايل ظهرها إلى جذع الدوحة. وما هي إلا دقائق معدودة حتى غشيتها سنة سرت في أعصابها كسريان عقار ناجع في عروق دَنْفٍ موجوع.

قبيل الزوال طفقت الصبية تتفقد أغنامها في ذلك المرج الواسع لتلمَّ شملها، تمعنت ملياً لم تر معها الشاة الرقطاء وأم التوأم والريداء وكذلك فحل القطيع الذي عادةً عندما يرى الثعلب في الفلاة من بُعد يبدو منتفشاً ناصباً قرنيه الطويلين منذراً له ومنافحاً عن القطيع، فيتهقر الثعلب مهابةً منه. دار في خلد أم شوايل بأنّها ربما ركنت إلى القيلولة تحت أشجار السدر الوريفة.

حان وقت الظهيرة، اغبرت قدماها وأصابها الإعياء وهي تبحث، سألت الرعاة ولكن ضاع جهدها سدى. أظلمت الدنيا في وجه الصبية اعترأها غم يفري الأحشاء، أجشعت بالبكاء. إنها الكارثة التي طالما تفادتها طوال سنين رعيها. طنٌّ في أذنيها صوت أبيها الأجدح حال نطقه وهو مقطب الجبين محذراً إياها من ضياع السوائم.

تشنجت عند أوبتها وهي تنتحب عسى الأغنام المفقودة تسبقها إلى المراح، ولكن هيهات .

وقبل أن يلف الظلام القرية لم تجد الصبية بدأً من إبلاغ أبيها. ولكي تخفف من صدمته، نبأته وهي مضطربة بأن تلك الأغنام ربما استاقها أحد رعاة القرى المجاورة سهواً مع قطيعه. أريد وجه الرجل، أزيد وأرغى وانتصب هادراً كالمعتوه: أما خبرتك؟ أما نبهتك؟ أما حذرتك؟ ظلت الفتية مرتكبة

مرتعشة. ودت بأن تنشق الأرض وتبتلعها. قضت الليل مسهدة تتقلب في فراشها كالسليم الذي يتأذى من دبيب سم زعاف في أوصاله.

مضى يومان ولم تعد الأغنام وعافت الغلامة الطعام. ما أتعسا !! فقد امتدت أيدي السُّراق إليها لتكدر صفو حياتها. حَزَبَ الأمر، وخرج معها والدها في غداة اليوم الرابع إلى فلاة قاصية كان ذلك اليوم موافقاً للثاني والعشرين من شهر شعبان من تلك السنة. انتشرت الأغنام في سفح الكثيب ترعى. اقتاد الرجل بُنيته إلى شجيرة مرخ وانفعل بأوداج منتفخة: فعلتك الشنيعة جزاؤها : إزهاق روحك للحاق بأمك أو إلقاؤك في ذياك البئر المهجور .. لم تحسن أم شوايل قراءة مشاعر والدها. كأن حفيف الأشجار يهمس لها: لا لا .. إنه فقط تهديد ووعيد ، فقلب الأب حنان دافق ومشاعر فياضة.

زجرها: هيا افصحي. عندها نطقت المسكينة بعد لأي بزفرات لاهثة وآهات حزينة: البـيـ يـ يـ ر !!

استاق الرجل ابنته نحو بئر معطلة ناضبة الشؤون، حضرها قبل عدة قرون خلت رجل من أشرف بلاد " شنقيط" ربما أراد أن تكون صدقة جارية للحجيج وعابري السبيل. ويبلغ عمق الجب سبعين قامة. جثت الفتاة عند فوهة البئر وقد استكنتُ بدثارها ووضع والدها إزاءها فرع من شوك السدر، وفي تلك اللحظة خالجه شعور خفف من هلعها إذ ظنت أن الأمر مجرد لعبة. وفجأ دفع الرجل الطفلة والفرع في فوهة البئر. يا إلهي أهذا أبٌ جدير بالأبوة أم عدو لدود. يا له من وحش بشري قُدُّ قلبه من صفاة صلداء بل من فولاذ صليب. نعم لو كانت تتساب في عروقه قطرة دم آدمية لما ارتكب هذه الجريمة النكراء.

هوتُ الطفلة في جوف الجب وقد امتلكها رعب يعجز اليراع عن وصفه. وما هي إلا ثوانٍ حتى استقرت في القاع. وارتجت حواشي البئر من صدى صرخاتها الداوية. اندست هوام البئر وما حوته من خفافيش وأفاعي وعقارب مذعورة في مخابئها. تآرجحت الطفلة التعسة عند سقوطها في البئر فانكفاً

فرع الشجرة تحتها وانغرز الشوك وما في البئر من قتاد وأعواد في بعض أجزاء
بدنها حتى أدمتها .

وكانت مرتكزة على جنبها الأيمن وقد علق الشوك بغدائرها السابلة.
هكذا بقيت أم شوايل مشددة في ذلك الفخ. عمّت السكينة قاع الجب. والبنت
في إغماء طويلة لم تقف منها إلا بعد ساعات، ولا شيء حول ناظرها إلا
سحب الظلام القاتمة. تحدرّ الدمع السخين مدراراً يكاد يحرق وجنتيها
الذابلتين وهي تحاول أن ترفع يسراها الطليقة إلى السماء دعاءً وتضرعاً لله
ليسخر لها مَنْ ينتشلها من هذا المأزق.

تعاقب الجديان والصبية تعاني من التصاقها في وحل القاع المبتل، من
ألم القروح المُمض، من هواء البئر النتن وجوها المحتر، من لسع النمل
القارص، من فحيح الأفاعي في ثقوب قريبة، من صرير الجنادب المتواصل،
وفوق ذلك تحاول أن تبحث عن ريقها لينساب في أمعائها التي طواها الطوى
فلا تجده من وطأة الظمأ.

تترأى في خيالها بين الفينة والأخرى صوراً لأمها الراحلة هتفت بصوت
خافض وإحساس غريب يمازجه يأس ورجاء وجزع: أماه أماه ليتني لحقت بك
حتى تتعانق روحانا في الأعالي.

تهدت بحرقة، أسدلت رأسها المثقل بالهموم واستغرقت في سنة خفيفة
أيقظتها منها سياط ألم البثور في بدنها. ثم انتبهت، كأنها تسمع هسيساً!!!
رأت كُماً ثم يداً تَمُدُّ وعاءً مترعاً بالحليب إلى شفثيها، شرعت تشفط بنهم
ونشوة من الإناء حتى ارتوت . تصرّمت الأيام، وتكرر المشهد، كلما عضها
الجوع بادرتها تلك اليد الحانية بكأسٍ من حليب مزاجه من ملح طفيف،
تمنّلت هيئة صاحبها في مخيلتها إذ يبدو بجلباب أبيض كأنما تزين وجهه
المشرق هالة من نور. كان المسعف هو سلواها الوحيدة. عدا ذلك لم يتبدل
الحال فقد ظلت رهينة ذلك المحبس . أعى الرقاد الطويل جنبها الأيمن وكلما

حاولت التمتطي غمزتها الأعواد الناتئة، يجنّها ظلام دامس لا تميز بين ليل ونهار إلا من خلال زغزغة سُمّارها الخفافيش عندما تغادر المكان من حولها نافرة للصيد عند الأفول أو عندما تسمع ثغاءً ورغاءً وأصواتاً بعيدة للرعاة آناء النهار. وصيحات الاستغاثة التي تطلقها تتبدد في الهواء. لكن تجلت حكمة المولى إذ كانت تلك الصيحات والآهات حِرْزاً لها من أذى هوام البئر. بانزواتها في الأركان وتحاشي مرقدتها .

مع إشراقة اليوم الثامن والثلاثين لحبسها تراقص بصيص ضوء في غمرة ظلام البئر. تأوهت أم شوايل، بغتة سمعت صوت " فرطاق"، إنه ضرب من سياط البداية يتألف من ذراع خشبية يُرتق فيها نسع من آدم يلوح به الراعي ثم يجذبه بعنف فيزيح الهواء محدثاً فرقة تُرعب الشياه التي تتأى عن القطيع. شع الأمل في فؤأدها الكسير. اقتربت نعجة لترمّ من سفير سفته الرياح حول فوهة البئر. وثب الغلام ليردها. انتاب الصبية لأول وهلة شعور دفين بالارتياح والأنس لأصوات النعم وحسّ البشر وانفعلت تصرخ: يا ناس .. يا ناس .. يا ناس.. علّ الحظ يبتسم لها وتفارق هذه الأيام السود. كان الصبي نابهاً يتحلى بفراسة الأعراب اقترب يتيقن مما سمعه ورغم ذلك ولّى هارباً فزعاً يتصبب العرق من جبينه. لُوْح " بفرطاقة" مطلقاً رجليه للريح والنعاج تركض أمامه صوب قرية " أم عجيجة" في بادية شمال كردفان والتي يقطن فيها أعراب من قبائل دار حامد والكبايش التي تنتمي إلى جهينة.

انتشر الخبر في القرية انتشار النار في الهشيم. بل نفى ذلك النبأ المرعب النوم عن عيون جُلّ أهل القرية. دار اللغط، ساور البعض الشك بأن الجُبّ مسكون. استعاد بعضهم ما رُوي لهم من في الصغر من أساطير مثيرة عن الغول والعفراريت والأشباح.

شق الغسق حُجب الدجى، أدّى سكان القرية صلاة الفجر في جماعة، وآبوا إلى دورهم استعداداً لصلاة أخرى. إنه يوم عيد الفطر الأغر.

النساء هرعن إلى المواقد لإعداد الفطائر وعصيدة العيد. ورتعن في ترداد الأقاويل عن خبر الساعة الخصيب. فاطمة بنت الجيران لفقت لهن حكاية عن شبح طاردها وقت الأصيل عندما خرجت تحتطب في وهد بظاهر القرية. تجمهر السكان في ساحة شرق القرية اتخذوها مصلى للعيد.

تبادلوا التحايا، تعالت التهاني: " عيداً مبارك عليكم.. عيداً بخيت وسعيد.. يلقانا زايدين ما ناقصين.. الله يبارك ليك في مالك وعيالك.. الله يديك عروساً هدية ورضيئة...".

انتصب الإمام وخطب في القوم ووعظهم ثم تناول الحدث الذي أنهك قطان القرية بالتساؤل والتفكير . حتى تراخى بعضهم مشبهاً بصرف النظر عن ذلك وترك عفاريت البئر وشأنهم كي لا يجلبوا للقرية الغوائل والشؤم. دَحَضَ الإمام العاقل الشك بيقين راسخ واختتم خطبته قائلاً: هيا تحلقوا حول موائد الإفطار لنؤم البئر ونستجلي حقيقة الأمر ولن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.

تدافع رجال القرية في طريقهم إلى البئر التي تبعد عنهم عدة أكيال. ثلثة منهم تتكبت البنادق وجماعة اتشحت بجفائر السيوف والبعض يحمل الفؤوس والمعاول والأشطان الطويلة.. وفور وصولهم التفتوا حول الرّس القديم. صاح رجل كهل في فوهة البئر بصوت جهير بلهجته الريفية: " إنسْ ولا جنْ" سمعوا رداً "أني بت، أني بت" قال الرجل: " بت منو؟" وجم القوم منصتين ويا هول ما سمعوا: " بت أحمد مختار" صاح أحد الرعاة: والله صِدْقُ صِدْقُ لم أشاهدها منذ عدة أسابيع أو أكثر. نصب القوم أعمدة على فوهة البئر. تقدم شاب همام شداً وسطه بالرشاء، بعدها شرعوا في إنزاله رويداً رويداً إلى قاع البئر، ولكن سرعان ما لفه ظلام حالك أخيراً ارتكز على غصن، لمح شعاعاً خافتاً لكنه خبا ثم علا صوته: " أنزلوا كشافاً للإضاءة، عندها ألقى استجابة سريعة وتدلى المصباح أمامه وأدار مفتاحه.

انبعث الضوء وهاجاً، رأى أفعواناً ضخماً في أخدود تجاهه يتأهب للهجوم عليه لكنه تراجع من بريق السراج وانكمش في شرح غائر بجانب البئر. التف الشاب لم ير شيئاً، تأفف من الروائح الكريهة ورفرفة الخفافيش التي لم تأنس لوجوده. أخيراً رمق الصبية ترقد على امتداد الفرع الذي داسه، لا تستتر إلا بأسمال ران عليها البلى وامتصت حشرة "دابة الأرض" أطرافها وأحالتها تراباً رطباً. بسط الحبل ووثق عراه حول رجليها وصدرها، جسدها بارد كالثلج، برى الضنك لحمها، حاول انتشالها، ارتفعت قليلاً عدا رأسها. لاحظ أن جدائلها تشبّت بشوك الفرع وبعضها التصق بثرى الجب اللزج. استل الشاب مديته من غمدها وحرر الضفائر وصاح بأعلى صوته: هيا يا رجال . فسحبوا الحبال إلى أعلى ثم أعادوها على الفور لإخراجه.

لقد أوعز للصبية هامساً زائرهما الذي يرفدها باللبن بأن ذلك اليوم هو آخر يوم لها في غيب البئر.

سجى القوم الصبية في ظل وريف غسلوا جسدها بالماء، أيقنوا بأنها قد فارقت الحياة بيد أنها قالت بصوت واهن: اعدلوني. شع الأمل في نفوسهم، آب بعض الشبان إلى القرية مسرعين لاستدعاء بعض النسوة ليباشرن تطهيرها بالمنظفات من دنس البئر. أثناء الغسيل سرّيت بعض الخفافس والبق من شعرها يتبعها عقرب صغير، وكان هناك عقرب كبير نافق تشبست أرجله بين الجدائل، ولم تحرك ساكناً.

نسوة القرية الحانيات ذرفن الدمع مشاطرة لأم شوايل التي عصفت بها صروف الدهر وذافت مرارة اليتيم، لكنها بثت الطمأنينة في نفوس ربعها مرة أخرى عندما نطقت مرددة عبارة: جوعانة، عطشانة، أمسك أحدهم أرنبه أنفها وضغط برفق على منخريها ووضع قطرات سمن في فمها لتطري حلقها، حشرجت أنفاسها، شهقت، ذابت القطرات وغارت في جوفها. وقفت امرأة شهلة، بسطت راحتها تزف تيار الهواء نحو وجهها الشاحب. وصل حكيم

القرية " دفع الله " جسَّ نبضها، تحسس أشلاءها العجفاء وحقنها بعقار " الفيتامين" بعد ذلك انتعشت قليلاً، لمحت عيناها الناعستان ببريق واعدت تتفحص وجوه الأهل حولها. طفح البشر على صفحات الخدود. ألم يرفع ذووها هؤلاء أكف التضرع في غداة يوم العيد للمولى ليزلل لهم كل أمر معسر ويجيرهم من كل نازلة؟

اتكأ شيخ إزاءها سائلاً: كيف وقعت في البئر؟ ردت بصوت متهدج وشفاتها ترتعشان: رماني والدي لأنني أضعت له أربع شياه. وجم القوم أسقط في أيديهم، بلغ الذهول منهم مبلغاً لا يوصف وهمهم البعض مكبراً وداعياً عليه. وأعيدت البنت إلى القرية وفور وصولها أُبلغ "موسى" قيم مجلس القرية سلطات بلدة " سودري" بما جرى. اقتيد الأعرابي الفج " أحمد مختار" يرسف في الأصفاد وجبينه يندى شناراً، عله تتسم مصادفة دونما يشعر زخات هواء - في يوم عاصف- كانت عالقة في طبقات الجو العليا منذ العصر الجاهلي فتغلغت جيناته في مسارب دمه وأين هو من قول حطان بن المعلي الطائي:

وإنما أولادنا بيننا

أكبادنا تمشي على الأرض

إذا هبت الريح على بعضهم

لم تشبع العين على الغمض

أودع الرجل خلف القضبان ترمقه عيون قومه الخجلى وتلاحقه اللعنات تترى.

أحيلت الصبية إلى مستشفى مدينة "الأبيض" الحاضرة الإدارية لذلك الإقليم. ذاع خبرها هُرعت جموع الناس زرافات ووحيداناً نحو مستشفى المدينة تناقلت أجهزة الإعلام ووكالات الأنباء وشبكات التواصل نبأ الساعة الذي يثير الدهشة. ساهم المسؤولون في نقل أم شوايل إلى عاصمة البلاد لتباشر العلاج. هناك أطباء من ذوي المروءة والشهامة استضافوا هذه اليتيمة ليضمودوا

جراحها ويغدقوا عليها ما افتقدته من عطف وحنان. إنهم أطباء مستشفى البراحة.

وممن أهمهم الخبر من ذويها المهاجرين بعد موجة الجفاف التي اكتسحت البادية، جدها خال والدتها "محمد زايد" وجدتها خالة أمها "فاطمة زائد" وأقارب آخرون وهؤلاء جميعهم أسرعوا الخطا إلى البراحة. اضطجعت جدتها معها على السرير الأبيض، طوقتها بذراعيها في حنو حتى أحست بالدفع، وأضحت تمرغ أطراف أصابعها على شعرها وتقبل جبهتها، افتثر ثغر أم شوايل عن ابتسامة عريضة وهي تدير بصرها في الغرفة تتأمل زائريها.

هكذا شملتها عناية المولى وأبدلتها من وحشة الرس أنساً ومن وحدة اليتم أهلاً وغمرها كل أفراد المجتمع بالتعاطف والود، لم تعد أم شوايل تلك البنية البدوية الساذجة بل أضحت رمزاً لكل موقن ولكل صبار على أذى الآخرين مع دعائه لهم بالهداية والرشاد، ولكل من لا يقنط من رحمة ربه.

تعاقبت السنون ، تماثلت أم شوايل للشفاء من كل العلل التي ألمت بها، تفتقت شباباً وحيوية، ازدانت برونق من البهاء والعفة، تقدم شاب من أهلها لخطبتها . احتشد يوم إملاكها جمع غفير في طليعتهم أساتها من مشفى البراحة يتقدمهم النطاسي البارع " عبدالله" الذي كان يداوم على متابعة حالتها الصحية. كان ذلك الحدث مبعث سعادة ضافية لأفراد مجتمعها كيوم إنقاذها من ذلك الرس المشؤوم.

شبح في الغابة

شبحٌ في الغابة

تلفح بعمامته القصيرة وجاءني ابن العم يلتمس مؤازرته في البحث عن بعض ماشيته التي لم تعد لمضربهم منذ يومين. تلكأت قليلاً. حثني قائلاً: هيا قبل أن تعفو الزوابع والأعاصير آثار أقدامها فنسير على غير هدى هائمين في العراء من غير دليل .

تسربت ثوباً قطنياً أبيض يقيني الحر في ذلك اليوم الصائف وبسطت حمالة بندقيتي على كاهلي ولحقته . وسلكنا طريق المزارع، لكن دلنا شيخٌ وقور بأن نتداعى صوب الجنوب حيث تتسع المراعي التي يجوبها الرعاة بين ظاعن و " مستفر". كنا نجتراً أثناء تجوالنا ذكريات الصبا الجميلة، أيام كنا نتسامر في الليالي المقمرة في ساحة القرية ونستبق كالخيل النافرة. رفيقي كان يحلو له التعلل بتلك الأيام السالفة والتلذذ بماضي الصبا.

طال المسير، أغبرت أرجلنا عانينا من وهج الهجير وكى الرمضاء. كنا نسأل من نلقاه عن هذه السوائم الضالة. اقتربنا من حي للبدو.

عاجلتنا بالنباح كلابهم السلوقية الشرسة بقوائمها المرتفعة كالذئاب لم ينقطع هريرها أثناء اجتيازنا محذرة من انتهاك حماها .

عند الزوال انحدرنا نحو أرض منبسطة كثيفة الأشجار ثم ولجنا دغلاً انتشرت فيه أشجار الدوم بلغنا أرضاً تتناقل بالثمار. وأيضاً أشجار الدلب الباسقة والعدرد الوريقة. الهدوء يسود المكان إلا من زغرعة أسراب طائر أبي الحناء بين الفينة والأخرى تثبُّ باحثة عن غذائها بين الأغصان المتشابكة. رفيقي يرنو ببصره نحو الثرى متفحصاً آثار المشية. فجأة ربت على كتفي والدهشة قد عقدت لسانه، بعدها نطق متمماً في همس: انظر!! انظر هناك!! مادت بنا الأرض ونحن نرى شبحاً على مسافة غير بعيدة منا. تبدو ثيابه غير متجانسة. كأنه يرتدي صداراً أظماره رثة ويأتزر ببردٍ داكن سابغ، يعلو

هامته شعر منكش ويتهدل ما تبقى على صدغيه حتى الكتفين. استترنا خلف جذع دوحه، لم يشعر بوجودنا. كان رفيفي مضطرباً ممتع اللون، جامداً في مكانه. انحنى الشبح ينكث الأرض ويلتقط نبق السدر. تقدم قليلاً ليقتات من ثمار الدوم وتارة يلتهم صمغ شجر "الهشاب".

استجمع رفيفي قواه وقال متلعثماً بصوت خافت: "أطلق النار، عجل ماذا تنتظر. استطرد محتجاً كأنه يريد أن يلقي عليّ درساً في البطولة: أسرع وإلا هات السلاح. لاحظ ترددي، حاول أن يبتزع البندقية من يدي وكانت محشوة بالذخيرة بيد أني أحكمت تأمين الزناد جيداً، حتى لا ينطلق العيار الناري. فطاوعته وقلت: حسناً سأتدبر الأمر. توجهت نحو الشبح بخطا وثيدة وهو يتبعني عن كثب. صرت أدبُ كالحرباء، لم ينتبه الشبح، تبينت ملامحه الأنثوية وأنا على بعد أمتارٍ مصوباً تجاهه. دونما أحس دعست غصناً صغيراً جافاً ملقى على الأرض فأحدث فرقة على إثرها تضايق من فضولنا من ساكني الغابة طائر القطا الذي كان مختبئاً بين الحشائش على مقربة منّا ففر محدثاً شقشقة ورفرفة بجناحيه معلناً الخطر الداهم للطرائد في الغابة، وكان من بينها الشبح الذي انطلق يعدو بسرعة جنونية مختفياً عن الأنظار. كانت أنفاسنا تردد في الحنايا تعبر عما دهانا من حيرة وفزع. التفت رفيفي موبخاً يصمني بالخور والتخاذل ناقماً على حياة الطلاب الحضرية والتي ليس من استفادها إلا الدعة والنعومة وطيب العيش وتلك صفات يمقتها البداية.

عُجنا آيبين على أقصر الطرق مبتعدين على الغابة، لاحت لنا ثلة من أعراب كنانه مسرعين على متون أباعرهم استوقفونا سائلين بلهجتهم المعهودة: يا جماعة الخير نشد عن بتاً لنا عوقه مستخلة عقلها طائش ما لقيتوها؟ عندها وصفت لهم شبح الغابة بدقة متناهية فأجابوا بصوت واحد: هي ذيك". وانطلقوا حاثين مطاياهم في إرقال صوب الغابة.

لا تسأل عن مدى الفرحة التي طغت على وجداني. لقد دللنا البداة على
ضالتهم المنشودة ونجوننا من إزهاق نفس بريئة في الخفاء.
فقر رفيقي البدوي فاه عجباً. لا جرّم أنه كان يفكر في سذاجته
وسفاهة عقله بل لعله فطن للتو لأشياء كثيرة أدناها ثمار الأناة والتثبت من
كل أمر جارٍ أو طارىء.

الجزء من جنس العمل

الجزء من جنس العمل

عَلِقَ إبراهيم ورهط من قبيلته بيئتهم الرعوية التي تبعد عدة أكيال من النيل الأوسط، ولا يغادرونها إلا لماماً للتسوق أو لكسب الرزق. وقد أخبره أحد السُّفَّار بأن موسم جني القطن قد آن، فأودع بعض سوائمه لأخيه واستاق بعضها وأخذ يضرب في الأرض مع أسرته الصغيرة نحو سواد النيل الزراعي. حطَّ الرِّحال على مرج فسيح قرب المزارع لترتع فيه بهائمهم. كانت نفسه تفيض نشاطاً وحيوية. نثر عتاد خيمته. زوجته خديجة وابنته فاطمة بذلتا جهداً جهيداً في ترسيخ أطنابها وشد أوتارها.

ركنت الأسرة إلى الراحة من جراء وعناء السفر ولغوب الإعداد للحلِّ.

بزغت الشمس، غدا إبراهيم مع زوجته إلى الحقول للعمل في جني القطن واجتثاث قصب القند هكذا اعتادوا. ابنتهما فاطمة كانت مبهورة بالبقعة الساحرة التي انتجعوا إليها. ودأبت تطهو الطعام. وتارة ترقب الأغنام حول الدار وتارة أخرى تكألاً أختها الصغيرة الفطيمة بالرعاية وتهدها كلما تآقت إلى أمها حتى يحين الرواح فيعود الوالدان مجهدين من عناء الكد، وتعد لهما المائدة.

درجت فاطمة على أن تلج أطراف المزارع قبيل الأفول لتجلب رميم قصب السكر - عقب الحصاد - علفاً لأغنامهم. استمرت حياة الأسرة الوادعة على تلك الوتيرة. وقد جمع الوالدان ما يعينهما عند الأوبة إلى تخوم البادية عقب انتهاء موسم الحصاد.

وفي أحد الأصائل توجهت فاطمة إلى الموقع المعهود في حافة إحدى المزارع القريبة ونضت ثوبها السابل الذي لا يعينها على جمع التبن واجتثاث أصول القصب. باشرت عملها ولم تبال كالعادة من الرقيب إذ تخلو ساحة الزروع في تلك السويعة من كل مرتاد. ولكنها لم تدرك بأن عين الرقيب قد رصدت

حركاتها وسكناتها في سالف الأيام. وها هو يسلُط مجهره نحوها ويتربص مختبئاً على مقربة تجنه خميلة شجيرات حولها قصب السكر الباسق . تأمل قوامها المياس المشوق وصدورها الناهد لقد اقتتصته مفاتن الأنوثة الآسرة التي تزينها حسناً مفرطاً. إنه سحر جارف. فبرز من مكمته متظاهراً بأنه يسير في اتجاه معاكس وفجأة التفت رافعاً يديه محيياً لها. ارتبكت فاطمة، سارعت إلى ثوبها وعادت لكومة العلف تشدها في عجلة لتفادر المكان. علا صوت الرجل الغريب: هلا ساعدتك في رفع الحزمة على كاهلك. لم ترتاب الفتاة في مقالته، خطا نحوها ، وأثناء رفعهما للحزمة باغتها بأن لوى بعنف ساعدها للخلف، اختل ارتكازها وطاحت الفريسة أرضاً وشرعت تقاوم للإفلات من الفخ بكل ما أوتيت من قوة. ولجأت للاستجد بالصراغ والعويل إلا أن الذئب الغادر دائماً يطبق قبضته بإحكام على عنق الضحية الهائمة ليخمد أنفاسها ويوهنها استلقت الفتاة ساكنة جاحظة العينين فاقدة الوعي يضطرب صدرها صعوداً وهبوطاً باحثة عن أنفاسها. تمادى الوحش الآدمي في عدوانه وقضى وطراً كان يصبو إليه منذ أن رآها قبل شهرين وهي تتردد على الحقول. بعد ذلك اختفى كظل علاه غيم السماء.

فاقت فاطمة مرهقة تذرِف الدمع مدراراً . جرجرت دُثرها. غسلت وجهها وبعض قطرات دم قان على مئزرها من جدول صغير يتدفق بجوارها. طفقت تسحب جسمها في ثناقل نحو الدار. ارتمت على الفراش وجسمها يرتعش صرخت أمها وهي تتحسس بدنها وتمتمت في صوت خافت وهي تجفف دموعاً ترقرقت في مقلتي ابنتها: الزروع تعج بالحشرات والبعوض. إنَّها سُعرة حمى البرداء الخبيثة ولا شفاء منها إلا بالرقية الشرعية.

أطرقت الفتاة تمحص الأفكار التي تتداعى في خاطرها. إنه عار لا خلاص منه إلا بالانتحار . لكنها نبذت هذه الفكرة القاتمة، ألفت في الحياة تلمساً لخطا الأمل. هل تبوح لوالديها فيعتصرهما الألم الموجه. كلا إنَّه سر

دفين يبقى في جوانحها. أسقط في يديها، ماذا تفعل! كيف تتصرف! وجمت بعد ذلك ولازمها الذهول كأنها ترثي مستقبل أيامها حتى آبت الأسرة إلى مضاربها في البادية.

أمّا الوحش البشري فقد انزوى في داره في قرية مجاورة خشية أن يفتضح أمره أو الاهتداء إليه حاول أن يتحسس ممن حوله فلم يشتم رائحة للخبر. فاطمأنت نفسه الوضيعة التي لا يحركها وخز الضمير. وبدأ يزاول حياته، وسافر إلى بلدة مجاورة لبعض مآربه، وأمضى صحابه يومه يتسوق فيها، وتهياً للرجوع. ألقى شاحنة يستقلها الفلاحون وقطان الريف في الأوبة إلى قراهم. فأثر أن يتعجل وحشر نفسه بينهم. ولكنه اعتلى مع بعض الشبان الزوايا العليا في صندوق الشاحنة الفارغة من البضائع واضعاً عجزه على فولاذها ومحافظاً على اتزانه بقبضتيه على حديد الزوايا.

أحس الرجل بالانتعاش والنسيم يداعب وجنتيه والشاحنة تنهب الأرض نحو الريف نهياً في طريق من العزاز الصلب المهد كأنه طلي بالقار. بيد أن السائق الذي تعوزه الخبرة لمح فجأة أثناء انطلاقه حفرة في لب المسار حاول جاهداً تفاديها ولكن بعد فوات الأوان.

ارتجت الشاحنة من هبطة الإطارات العنيفة فيها واندفعت للأمام سمع صرخة داوية "آه" على إثرها دعس كوابحه للتوقف مشدوهاً.

كان في وسط الشاحنة شيخ يجلس القرفصاء في الأسفل على قاعدة الصندوق ممسكاً بكلتا يديه على عصاه الغليظة الطويلة مرتكزاً عليها وتبرز سامقة كأنها صارٍ لبارجة تمخر العباب. وعند ارتجاج الشاحنة في تلك الحفرة فقد الوحش البشري اتزانه واندفع ساقطاً من علٍ متأرجحاً كأنه يسبح في الهواء وصادف هراوة الشيخ المنصوبة، فأصابت بطنه في مقتل عند سقوطه عليها، فأوقفت صحيته المرعبة سائق الشاحنة فترجل وجلاً ليستيقن من الأمر. الوحش البشري تمزقت أحشاؤه، تنزف دماؤه كالشلال، يصرخ

بأعلى صوته، يتلوى من وخزات الألم القاتل، يا له من وغد، إنه نسي دماء العفة الطاهرة التي أراقها قسراً، ولم يضع في حسبانها أحاسيس الألم المبرح التي احتفرتها في وجدان فاطمة تلك الغادة البريئة.

ارتد سائق الشاحنة للمدينة لإسعافه لكن في الطريق تدهورت حالته جداً، ارتعشت يداها الأثمتان وهو يعاني من سكرات الموت، تراءت في ناظريه أحبولة هتك العرض التي نصبها ثم فاضت روحه. انصرم عام على تلك الأحداث وفاطمة كئيبة لا تفارق مسحة الحزن محياها، ولم تشك أمها لحظة أن ما أصابها مس من أم الصبيان اللعينة التي تداهم النشء لذا حرصت على تلاوة القرآن إزاء رأسها عند المقام. ورغم ذبولها فهي تبدو بجمالها المفرط كوردة فواحة الأريج.

زارهم يوماً ابن عمها علي فوقعت في نفسه موقعاً حاول أن يختلي بها ليزف إليها الخبر ولكنها هزت رأسها حياءً مما زاده إصراراً ليتقدم لخطبتها. اتفقت الأسرتان . بدأ الإعداد للحفل .. دنت ليلة الزفاف، زغاريد الابتهاج تشق عنان السماء دقت الطبول، أصوات الرصاص تهنيء العروسين والعشيرة. تعالت العبارات: مبروك . بالرفاء والبنين، كوكبة من الغيد صحن العروس وهي في حجاب سابغ إلى مخدع الزوجية كعادة البدو وخرجن .

كان على ولهاً بابنة عمه . تسارع وجيب قلبه للحظة طالما تاق إليها. أماط الغلالة عن فاطمة في شغف، بدت كالثريا تالقا إلا أنها انخرطت في البكاء المرير. انفعل علي: لم لم تخبريني بعدم الموافقة مسبقاً يا ابنة العم؟ قالت: تحينت الفرصة لأخبرك وأنت لم تزر بيتنا منذ خطبتك لي . رد علي: هيا افصحي ، ما الأمر؟

أردفت فاطمة: هاك ما أكنه من حقائق ولك الخيرة ترددت قليلاً، تلعثت وتملكها الخوف ولكنها تجرأت أخيراً وباحت له بكل ما جرى لها. ووطدت العزم أن تواجه مصيرها في الحاليتين طلاق أو سماح. إنه قضاء محتوم.

سكت على برهة جالت في ذهنه لحظة سجلات صباها ألم يعهد من ابنة عمه الصدق منذ نعومة أظفارها وهي ترعى البهم في حومة الحي؟ أيسامحها من الضيم والجور الذي لحقها من الجلاد الباغي؟ طأطأ رأسه دقائق معدودة، فاطمة ترقب بتوجس تقاسيم وجهه بل كأنها تعد أنفاسه أخيراً رفع علي رأسه ولسان حاله يقول: لا بد من الصبر والتضحية والإيمان الراسخ إنه شرف الأسرة كلها . مسح برفق على عيني عرسه الدامعتين ووجنتيها البضتين وضمها إليه في حنو.

مغامرة

مغامرة

انكب "حامد" في عمله يدحو عجين الخبز ويدفع طاولته في جوف الفرن. لقد خاض معترك الحياة منذ أن هجر المدرسة لخمسة أعوام خلت. إذ لم تخوّل له ظروف أسرته الاجتماعية مواجهة أعباء الدراسة الباهظة، ينتابه حين جارف إلى مقاعد الدراسة، ولكنه تركها مرغماً، يجوب الشوارع بوجه متجهم وجيب فارغ حتى استضافه أحد رفاق والده في البلدة المجاورة ودرّبه على هذه المهنة. فصار يصطلي بنارها طيلة أيام الاسبوع عدا الجمعة. وعندما يأوي إلى فراشه لا يستمرىء النوم بل يصحو في الهزيع، تتقطع نفسه حسرة، ويؤنبه ضميره اليقظ على الانخراط في هذه المهنة التي لا تليق بطموحه الوثّاب. دائماً تداهمه هذه الأفكار. لا لن يستسلم للخيبة واليأس، يحس بألم بليغ وآهات حارة. وذات يوم قبل أن يسترخي في فراشه، عزم على عرض " فكرة الخلاص" من هذه الهموم على صديقيه "كمال" و " محمود" اللذين تركا المدرسة قبله لظروف قاهرة مماثلة ويعملان في سوق المحاصيل.

يباشر كمال عمله المضني يغدو مبكراً، ينغمس دائماً بين الموازين المنتشرة في ساحة السوق.

لا تفارقه العوة والضجة، هدير الشاحنات تفرغ حمولتها من الذرة والصمغ وال فول السوداني، رغاء الجمال على متونها الرحال، حركة مركبات "الكارو" تجرها الحُمُر والخيول والسوم يتعالى: القنطار مائة، مائة وعشرون... وثلاثون.. هل من زود؟ أوزن يا كاتب .. سَجَلْ... ضَرَبْ.. هكذا حال كمال ورفيقه محمود، لا يجدان فرصة للراحة إلا عند اختلاس دقائق معدودة من زمن الإفطار أو قبيل إقامة صلاة الظهر، ثم يعودان لاغبين والشمس في انحدار إلى خدرها تجلّها سُحب غبار المركبات العابرة، إنها حياة رتيبة ومردودها المادي الضئيل لا يواكب تيار المعيشة المتصاعد.

اجتمع ثلاثتهم في يوم الجمعة يسمرون ويتناجون في شئونهم الشخصية. كلٌ منهم نثر كنانته الملقى بمزيج من أقدار المهنة وهموم الحياة والتفاؤل بتطلعاتٍ لمستقبل واعد، تباحثوا طويلاً، قلبوا الأفكار ملياً. اتفقوا على التخلي عن هذه المهن. وضربوا موعداً لشد الرحال إلى ليبيا للعمل في حقول النفط الغنية والمنشآت التجارية المزدهرة. كلٌ آلى على نفسه ألا يعود من أهله بحلول آخر الشهر إلا ومعه ما يعينه من بتات وبلاغ لإنجاز رحلة العمل. براً إلى البلاد الليبية.

توجه الشبان إلى مدينة تقع على مشارف الصحراء الكبرى، وهي مركز انطلاق المسافرين الذين يجتازون الصحراء الكبرى من بلاد السودان إلى الحدود الليبية حيث تقلهم شاحنات ضخمة مُعدة لتلك الرحلة الشاقة عبر بحر مديد من الرمال لا ساحل له. عقدوا لواء إمارة الركب لزميلهم الوقور "محمود". الموقع يزدحهم براغيبي السّفَر الذين يتسابقون للحجز. مظلات وحوانيت تعج بالمتاع. يتصاعد صدى الجلبة والضوضاء من المطاعم والمقاهي التي يديرها أخلاط من رجال ونساء كهلات.

كان محمود مرهف الشعور، يخامرهُ إحساس بأنّ أمراً ما سيحدث. لم يكن هادئ البال. وفي إحدى الليالي - بعد أسبوع من وصولهم في انتظار السفر- لم ينم مرتاح النفس، بل هبّ يتصبّب عرقاً. دهمه كابوس مرعب، لم يوافق الكرى مقلتيه، أطبق أجفانه ولكن جفاهما المنام حتى الغلس. وصدق حدسه.

فعندما تقدّم رفاقه في الصباح عند الشروق لتناول شاي الحليب بالفطائر، لاحظ جمهرة من الناس أمام مقر الجمارك بالقرب منهم يطالعون إعلاناً على البوابة الموصدة. اشترأب محمود بقامته الفارعة وقرأ الإعلان بصوت جهير: "تم حظر السفر براً بالشاحنات خارج البلاد إلى إشعار آخر".

تراجع كمال خطوةً إلى الوراء واضعاً يده على جبينه كأنما قُذِفَ بُنْبُلٌ
في ناصيته من هول الخبر.

وعندما وصلوا المقهى تهالك حامد على الكرسي يندب حظه العاثر.
أشعل سيجارة ينفث دخانها بكثافة.

تلاشى الأمل في نفوسهم. حقاً كان خبر الساعة كالخناجر الصدئة التي
تحز الأحياء. النادل يضع الشاي أمامهم مسترقاً السمع، استوقفته عبارة " لا
حل سوى الصمود" كانت عيناه مسلطتين نحوهم.

استقى الخبر وفهم المقصد. استدار قليلاً، فكّر وقدّر، إنما فرصة
ذهبية للابتزاز والتكسب. اشتدت الأفكار في ذهنه. وعندما عاد ليأخذ الآنية
أقحم نفسه في نقاشهم: " لا تستسلموا لليأس .. الأمر ميسور.." قال كمال:
كيف؟ رد النادل: " كبير الأدلاء على سفن الصحراء دبير خبير بالمفاوز
يحفظها خبتاً خبتاً تلاً تلاً يعبرها على مدى السنوات من الواحات التي يألفها
بداة السودان إلى يفاع" العوينات" بتخوم ليبيا".

راقت الفكرة للشبان، وذاعت بين المنتظرين في الثزل. منحوا النادل ما
طلبه من عطاء فاستقدم الخبير. أشار بشراء الجمال الدواسر التي تتجشم
صعاب الصحراء وأهوالها. احتملوا عليها المتاع ولا سيما المثونة والماء. يمم
الركب وجهة شطر الصحراء الكبرى صوب البلاد الليبية، والخبير في
الطليعة. الجمال تغوص أخفافها في الرمال الدقيقة وتزعها نزعاً فتتهادى
تباعاً، وعندما تتغير طبيعة الأرض إلى حزن أو سهل يغذ قطار الجمال السير
في نسق رائع. لا استجمام إلا سويعات المقييل حين يستظل كلٌ بفيء بعيه في
حمارة الغيظ في تلك المومة القاحلة الجرداء. ولا قوت إلا اليسير الذي يقيم
الأود حفاظاً على الزاد توقعاً لما يعن من أخطار في ذلك التيه الشاسع.

ليل الصحراء البهيم يسدل أستاره في صمت رهيب لا يمزقه إلا عواء الضواري أحياناً من ذئاب وثعالب أو ترنم الحادي الشجي يستحث رفاقه لينشطوا في وكز الرواحل لتجد في السير لا يخلدون للراحة والنوم إلا عند الفلق بعد صلاة الفجر. تتوهج شمس الضحى فتوقظهم لاستئناف الرحلة.

في إحدى الليالي هبت عاصفة رملية هوجاء، الخبير وجه بإناخة الجمال في حلقة مستديرة. تبوأ الشبان مراقدهم في وسطها واستسلموا للنوم منهكين. تنفس الصبح، تسلسل شعاع الإشراف ليغمر وجوههم التي كساها الغبار. فهبوا لأداء صلاة الفجر ولكن ! ولكن ! أين الخبير؟ ربما ذهب ليختلي الخلاء، كلاً!! إذا أين بغيره الأصهب؟ لقد اختفى الرجل! فهو بارع في إدراك تلاع الصحراء ودروبها العسيرة. سفت الرياح كل أثر له. لقد قبض الأجر واهتبل السانحة المواتية التي كان يرنو إليها. إنه غادر خؤون. عاد أدراجه ليعثر على ضحايا آخرين يفرر بهم من تلك البلدة.

عقدت الدهشة ألسن الجميع، أحسوا بغوائل الضياع، تصايحوا في وجل مما حدث، تناثرت آمالهم في الصحراء. ساد الهرج والمرج. سيطر عليهم الرعب والاضطراب، ترقرت الدموع، زاغت الأبصار. ما العمل؟ أين تكون وجهتهم في خضم الرمال المترامي؟ إنه هلاك محقق بعد نفاذ المؤن.

كان "محمود" أصبرهم على احتمال المكارِه وأنقذهم رأياً. اقترح عليهم انتقاء أسن الجمال وأن يتركوا له الحبل على الغارب ليسير على هواه ثم تتبعه القافلة أينما اتجه. أصغت إليه ثلثه وبقية المسافرين بكل الجوارح. لاقت الفكرة رواجاً وقبولاً منهم.

واصلوا الارتحال على تلك الشاكلة أياماً في ضجر وفي أذهانهم صوراً مشوشة معتمة لمصيرهم المجهول. أمير الركب يقوده في حنكة وحذر. تعبر مشاعره الفيا في الشاسعة، فيتبدى له طيف أثير إلى نفسه، طيف "ليلي"

مخطوبته - التي في ميعة الصبا - مستحضراً عبارات وداعها إياه ليحظى بعود أحمد يغدق عليها حياة استقرار ورفاء. عثار بغيره المتقطع بشدة فيفوق من أحلامه ويعمر وقته بالتضرع والذكر للنجاة من هذا المأزق الحرج.

في اليوم الخامس بدأت الأرض تتحدر في وهد رحيب تتناثر فيه الأعشاب الفقيرة المخضرة. عمّ البشر الوجوه. إنها واحة صغير. أناخوا المطايا حول الآبار وطفقوا ينهلون الماء ويبتدون به وينثرونه حول أبدانهم في بهجة منافية.

لم تدم فرحتهم طويلاً بعد ذلك، إذ اكتشفوا أنّ الواحة مهجورة وهي منتجع شتوي لأولئك البدو الذين بيع منهم الجمل الثلب الذي قادهم إليها. فهو يدور ويدور ويقبع باركاً وسط العدّ. تناقض الزاد وخيم عليهم الحزن واليأس ثانية وهم في هذا الحال المزري سمعوا بغتة هدير محرك من بعد، لا تكاد عقولهم تصدق من فرط السرور، بل استحال الهدير في مسامعهم إلى موسيقى أسرة تدغدغ المشاعر. تشكلت لوحة راقصة بعضهم يعانق بعضاً، اختلطت الضحكات بالدعاء والابتهاال بصيحات الابتهاج الغامر، أبصروا سيارة فارهة بيضاء على صفحتها بيرق سندسي نقشت عليه عبارة " لا إله إلا الله محمد رسول الله" تبادل ركابها التحايا معهم، وغرفوا ماء في أسقيتهم تجاذبوا معهم أطراف الحديث. إنهم سواح من جزيرة العرب قصدوا تلك البقاع للنزهة والصيد وبصحبته سائق مرشد من بلدة " أبو حمد" على شاطئ النيل الأعلى والتي توازي ذلك الموقع من الصحراء الكبرى وتبعد عنه ستمائة (كيلو). احتمل الزوار بعض الشبان معهم في السيارة إلى مدينة " أبو حمد" والذين تخلفوا زودهم بهاتف نقال وطعام كافٍ وبوصلة ريثما تسعفهم شرطة المدينة بعد إبلاغها الخبر في غضون ساعات. لقد قيّضت لهم العناية الإلهية مقدمهم الميمون ليكون إنقاذاً لهؤلاء الفتية التعساء من براثن الموت الزؤام ليدركوا أن الأمور توزن بعقل مفكر ثاقب خلو من العاطفة مستوعب للظروف.

الصدق منجاة

الصدق منجاة

أراد أحد أباطرة الصين أن يختار خلفاً له ليكون ولياً للعهد ومن ثم يعتلي العرش بعده في أمدٍ قصير. وأعلن ذلك لشبان البلدة. فقدموا من كل حدب وصوب. ولما اكتمل الجمع وزع عليهم بذوراً وطلب منهم غرسها وتعهدها بالسقيا والرعاية التامة. ووعدهم بتحديد موعد بعد أشهر لإحضار النبات بعد أن يكتمل نموه. وانفض الجمع. وكان من ضمن هؤلاء الشباب فتى اسمه " لينج" فرجع إلى أمه ترتسم على وجهه ابتسامة عريضة لما يحدوه من أمل براق في الفوز في هذه المناسبة الموعودة.

اشترى لينج وعاءً فخارياً وأضحى يياشر سقيا الحبة يوماً بعد يوم. ولم تبرز أوراق البادرة. تصرمت الأيام والموقف نفسه. خيمت على لينج سحابة من الحزن وهو يدعو كل يوم آملاً بروزها فالقة التربة الغرينية. اشتكى لأمه، حاولت أن تسبغ عليه الطمأنينة ولكن دون جدوى، وانقضت ثلاثة أشهر والموقف ما زال مقلقاً .

لم تبرز البادرة أعلن اليوم المحدد لعرض النبات. ذهب لينج مع أمه تعلق وجهه غلالة من الكآبة توجه واضعاً الجرة التي عليها الحبة مدوناً عليها اسمه. دسّها بانكسار بين الأزهار اليانعة والورود الزاهية التي أحضرها أقرانه.

بدأ الاحتفال المهيب في تلك الساحة لاختيار ولي العهد . وأضحى الجمع الحاشد يحدق في البادرات والأزهار المتفتحة التي سيتم بُعيد برهة اختيار أحد أصحابها ليتم تتويجه ولياً للعهد على بلاد الصين قاطبة. انزوى "لينج" قرب والدته بعيداً في ركن الساحة والدموع تتحدر من عينيه منتحباً من سوء الطالع والخيبة وبدأ الأمبراطور يسير وثيداً بين صفوف الزهور والبادرات الغضة يمعن النظر فيها . ساد وجوم في الساحة . ارتفع نبض قلوب الشباب المشتركين في

رحبة الميدان كلُّ يمني نفسه بالفوز. أعاد الأمبراطور الكرة، توقف أمام جرة لينج ثم ارتفع صوته: مَنْ صاحب هذه الجرة؟

أربدَّ وجه "لينج" وارتعدت فرائضه خوفاً من أن ينحى عليه الامبراطور باللائمة في تفريطه وخيبته . تقدم " لينج" مضطرباً دعاه الامبراطور، وأمسكه من يده وسار به نحو المنصة معتلياً إياها وسأله عن اسمه، وصرخ بأعلى صوته: أيها الناس ...

وجم الجمع كأنماً على رؤوسهم الطير. أيها الناس صفقوا وحيوا امبراطوركم العظيم " لينج".

كل حبوب النبات التي وزعتها للشباب فاسدة..

اندفعت والدة "لينج" من بين الجموع الهادرة كأنما خامرها مس من الجنون تقبل ابنها ، ويتقاطر سيل الدموع من خديها.

أزمة الضمير

أزمة الضمير

حكاية مترجمة من اللغة الإنجليزية بتصريف -

أطبق الجفاف على أنحاء المعمورة ، الكلاب النحيلة تتجول صوب
كومة القمامة ، ترفع أذيالها كأفنان رقيقة في مهب الريح . إنها تبحث عن
رميم عظمٍ أو فتات طعامٍ يسد الرمق . أصوات القطط وهي تمؤ ساغبةً في
أعالي الدور علها تستجدي من يحنو عليها بنزيرٍ من قوتٍ ، عدا ذلك
فالسكون يخيم على حي البلدة الأهلة بالقطان.

علا صوت المؤذن مجلجلاً يردد النداء للعشاء ، توافق القوم ، وقبيل أن
ينفض الجمع ، وقف منتصباً

شيخٌ مهيب الهيئة يخبرهم بأنه وضع قدراً واسعاً في فناء الحي ليصب
كل فرد منهم إناءً مترعاً بالحليب الطازج آناء الليل لإسعاف الأطفال الذين
يتضورون جوعاً في القرى المجاورة وافق الحشد على هذا الرأي السديد
ومضى الكل لشأنه وقد وطّدوا العزم على تنفيذ هذه الخطة الحكيمة .

جنّ الليل ، غطّ السكان في سبات عميق ، لكن ها هو الشيخ يقظٌ
يسترق السمع مستلق في فراشه إنه مسهد قلق من معاناة أولئك الجوعى
والمعتفين . التقطت أذناه صدى ، إنه ديبب الأرجل المتواصل نحو القدر
وصوت انسكاب الحليب في القدر . لقد اعترته نشوة من الحبور وشع الأمل في
نفسه لترابط وتعاضد عشرائه وجيرانه عند حلول النوازل والكروب . إذاً
فالكل حريص إتراع القدر بالحليب .

انبلج الإصباح ، بزغت الشمس خطا الشيخ مفعماً بالبهجة نحو القدر .
رفع الغطاء ! ! ! تراجع مقدار خطوتين القهقري ! ! يا للهول ! ! القدر مترعٌ
ولكن ! ! ! يعتقد كل فرد من القوم أن رفيقه قد صب في القدر وعاء من
الحليب وإذا هو ادّخر حليبه أمكنه أن يصب كأس ماءٍ واحدٍ في القدر

يخالط الحليب فلا يظهر له أثر . لقد كان تفكير الجميع على هذا النمط !
! وهكذا أصبح القدر ينضح بالماء القُراح . تحدّرت الدموع همّالةً على خدّي
الشيخ . استحالتُ سعادته غمّاً ! ! صار يهتمهم تضطّرب شفّته بأصوات مبهمة

ثرى ماذا يقول ؟ ؟ ؟ ؟

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٢	تقديم
٣	أم شوايل
١٤	شبح في الغابة
١٨	الجزاء من جنس العمل
٢٤	مغامرة
٣٠	الصدق منجاة
٣٣	أزمة الضمير